الفتوة فى اللغة وكتب الأدب

وحياة الفتيان فى الجاهلية وعصور الاسلام

نقص قواميس اللغة العربية وقصورها عن تحرير المعاني

للأســـتاذ ضياء الدخيلي

فى العدد (٧٨٤) من مجلة الرسالة الغراء انتقد الأستاذ محمد عبد القادر الجمل استشهادى بأبيات المتنبي وابن هرمة لاثبات معنى (فتى) فى لغة العرب وهـذان الشاعران وإن كانا من المولدين إلا أنهما مما يحتج بهما ، وهـذه كتب اللغة مفعمة بالاستشهاد بأبيات ابن هرمة فى إثبات معانى الألفاظ ، وقد قال شارح لديوان الحماسة جمع أبي تمام (إن ابن هرمة آخر الشعراء الذين يحتج بقولهم)[1] وابن هرمة هو إبراهيم بن على ابن سلمة بن هرمة بن هذيل جاء فى (بلوغ الأرب) أن أبا عبيدة كان يقول افتتح الشعر بامرىء القيس وختم بابن هرمة[2] وإنك لواجد الاستشهاد بشعره فى كتب اللغة من ذلك أنهم استشهدوا فى مادة سلأ السمن إذا طبخه وعالجه فأذاب زبده بقول ابن هرمة

إن لنا صرمة مخيسـة نشرب ألبانهـا ونسلؤها

وأورد الجوهرى فى الصحاح فى (هيد) عن أبى عمرو قول ابن هرمة .

حتى استقامت له الأفاق طائعة فما يقال له هيـد ولا هاد

و (هيد وهاد) زجر للابل وما رأيك فيمن منحه الجوهرى ثقته ؟

وإنى لم أورد بيته شاهداً باختيار تعمدته ، ولكن ذلك جاء ضمن كلام لابن منظور الأفريقي نقلته من كتابه (لسان العرب) فهو الذى احتج بكلام ابن هرمة واستشهد بشعره وفى الأغانى[3] أن ابن هرمة ولد سنة تسعين وأنشد أبا جعفر المنصور فى سنة (١٤٠) قصيدته التى فيها .

(١) فى الطبعة الثانية التى نشرتها مطبعة محمد على صبيح .

(٢) ج ٣ ص ٩٠

(٣) ج ٤ ص ٣٩٧

١٤ . ٣١

إن الغوانى قد أعرضن مغلبة لما رى هدف الخمسين ميلادى

قال ثم عمر بعدها مدة طويلة وفيه أخبر على بن سليمان النحوى عن ابن الأعرابى انه كان يقول ختم الشعراء بابن هرمة وفيه وفى كتاب (الشعر والشعراء) أن الأصمعى عده فى خمسة ختم بهم الشعراء فى رأيه . فها أنت تجد اعتداد علماء اللغة بشعره ولو لم يكن فصيحاً لما أقبلوا عليه .

وأما المتنبي فالويل لناقده من غضبته ، لقد جحدت يا أستاذ آيات المتنبي وكفرت بشريعته الأدبية ، فاحذر شـواظ غضبة ذلك العبقرى الذى توج بأكليل الخلود والذى صرخ فى العصور أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم

فآمن بعبقريته حكيم المعرة وأبصر جلاله على عماية فأهدى للأدب (معجز أحمد) ومن قبلنا بأزمان وأزمان قال العباسى فى (معاهد التنصيص)[1] لقد كان المتنبي من المكثرين من نقل اللغة والمطلعين على غريبها وحوشيها ، ولا يسأل عن شىء إلا ويستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر حتى قيل أن الشيخ أبا على الفارسى قال له يوماً كم لنا من الجموع على وزن فعلى فقال المتنبي فى الحال حجلى وظربى . قال الشـيخ أبو على فطالعت كتب اللغـة ثلاث ليال على أن أجد لهذين الجمعين ثالثاً فلم أجد وحسبك من يقول أبو على فى حقه هذه المقالة[2] قال العباسى ورزق المتنبي فى شعره السعادة واعتنى العلماء بديوانه فشرحوه حتى قيل أنه وجد له ما يزيد على أربعين شرحاً وقال فيه أبو القاسم الطبسى :

ما رأى الناس ثانى المتنبي أى ثان يرى لبكر الزمان ؟

هو فى شعره نبي ولكن ظهرت معجزاته فى المعانى

وحكى أن المعتمد بن عباد صاحب قرطبة وأشبيلية ، أنشد

(١) ج ١ ص ١١

(٢) قال فى تاج العروس (ونقل شيخنا عن أبى حيان ليس لنا جمع على فعلى بالكسر غير هـذين اللفظين ، ويقال أن المتنبي لقى أبا على الفارسى فقال له كم لنا من الجموع على فعلى بالكسر . فقال أبو الطيب بديهة حجلى وظربى لا ثالث لهما ، فما زال أبو على يبحث هل يستدرك عليه ثالثاً وكان رمداً ، فلم يكن له ذلك حتى قيل أنه مع كثرة المراجعة ورمد عينيه آل به الأمر إلى ضعف بصره ، ويقال أنه عمى بسبب ذلك والله أعلم ، ثم قال وهى من الغرائب الدالة على معرفة أبى الطيب وسعة اطلاعه رحم الله الجميع) انظر مادة ظرب .

يوماً فى مجلسه بيت المتنبي الذى هو من جملة قصيدته المشهورة وهو :

إذا ظفرت منك العيون بنظرة أتاب بها معي المطى ورازمه

وجعل يردده استحساناً له وفى مجلسه ابن وهبون الأندلسى فأنشد ارتجالا .

لئن جاد شعر ابن الحسين فإنما تجيد العطايا واللُها تفتح اللَّها

تنبأ محباً بالقريض ولو درى بأنك تروى شعره لتألها

واللها بالضم العطايا وبالفتح جمع لحاة الحاق .

وما تقول يا أستاذ فى ابن هشام إمام النحاة ، لقد استشهد بشعره فى كتابه شرح قطر الندى فى النحو ، واتخذ شاهداً فى بحث التذبة قوله فى سيف الدولة :

واحر قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمى وحالى عنده سقم

ولا أكتمك أنه انتقده أيضاً وخطأه فى بيت له وذلك فى بحث (عمل لا النافية عمل ليس) إذ قال وغلط المتنبي فى قوله :

إذا الجود لم يرزق خلاصاً من الأذى

فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقيا

والشاهد فى (لا) فى الوضعين فإن المتنبي أعملها عمل ليس مع تعريف اسمها فى الوضعين وذلك غلط لاشتراط كون اسمها وخبرها نكرتين ، ومع ذلك فإن المتنبي جلالا لا يهدم فى اللغة ونحن لم نستشهد بشعره وشعر ابن هرمة لإثبات المعنى ، وإنما جئنا بهما لتأكيد ما دل عليه شعر طرفة ولا ريب أن ذلك مما لا يؤاخذ عليه وفرق بين التأسيس والتأكيد وأنت أيها الأستاذ الناقد المحترم قد أسأت إلى المتنبي عندما أنكرت علينا أن نحتج بروائع أبي الطيب فى تفهم لغة العرب الأصلية المنزهة من تلويث المولدين والأعاجم والمتنبي العربى لو كان حياً لتناولك لهيب انتقامه ولسير قصيدة فى هجائك ترتعد لهولها الفرائص فكفر عن كفرك بآياته الخالدة وجحودك لعبقريته الفذة ، أما سمعت بقصة أبي على الحاتمى عندما تحرش به وتعرض له إذ قدم بغداد فتاه اعتزازاً بأدبه وأبدى من الكبرياء والعظمة ما أسخط عليه البغداديين فانتقده الحاتمى ثم خشى بطشه قال (ثم عمرت ما بيني وبين المتنبي وخفته بالحقيقة أن يشتغل بى دون كل أحد فحدانى ذلك إلى كتابة الأبيات من شعره المقابلة لما قال الحكيم أرسطاطاليس وهى الجامعة لجواهر شعره وقدمتها هدية إليه وحسن الحال بيني وبينه) وعلى كل فإن أبيات المتنبي يعتمد عليها فى تفهم معنى مفردات اللغة ، هذا ما أردنا بيانه بالنسبة لما تفضلتم به عن هرمة والمتنبي ، أما الأبيات الأخرى فقد استشهد بها كبار علماء اللغة فى أهم الموسوعات اللغوية المتداولة ، وقد ذكرت كتبهم التى أخذت منها وهم الزمخشرى فى الأساس وابن منظور فى لسان العرب وصاحب تاج العروس ، ولا ريب أن ما احتج به هؤلاء الفطاحل يصح لى أن أتبعهم فى الاحتجاج به وأذكره شاهداً . وإن لم أعرف قائله ، وقد غمزتنى بأنى أوردت تلك الأبيات المجهولة القائل مع ذكر من وثق بها من كبار اللغويين ولا يهمنى بعد ذلك أن يكون قائلها جاهلياً أو مولداً واستثنى من ذلك البيت التالى فلم آخذه من كتب اللغة وإنما وجدته فى (حلبة الكميت) تأليف النواجى شمس الدين محمد بن الحسن إذ أورده ثانى بيتين لم يذكر قائلهما هما :

كن ابن شئت واكتسب أدباً يغنيك مضمونه عن النسب

إن الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبي

هذا وليتذكر الناقد المحترم أننى أوردت تلك الأبيات فى نقض قول الأستاذ محمود رزق (وبدهى أن معنى فتى لا يفيد لغة معنى شهم) ومع ذلك يصح لى أن أستند إلى قولى المتنبي وابن هرمة إذا استعملا فتى فى معنى شهم فإن لغة عصرهما الأدبية الجارية فى الشعر مما يعتد به .

ولإكمال البحث أورد لك نصوصاً أدبية أخرى قد لا يأتى جملة منها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وقد استعمل فيها (فتى) فى معنى الشهامة ، فقد جاء فى هامش بلوغ الأرب(١) أن سعد بن مالك بن ثعلبة جد طرفة بن العبد قال :

والحرب لا يبقى لجاحمها التخيل والمراحُ

إلا (الفتى) الصبار فى النجدات والفرس الوقاحُ

الجاحم من الحرب : معظمها وشدة القتل فى معاركها ، تخيل الرجل تكبر ، والمراح الاسم من مرح الرجل إذا اشتد نشاطه وفرحه وبطر واختال .

وفى بلوغ الأرب (٢) قال عمرو المحاربى من عبد القيس :

(١) ج ٢ ص ١٤٩ (٢) ج ٢ ص ١٢٣

سقى جدث (الريان) كل عشية من المزن وكاف العشى دلوح
أقام (لفتيان) العشيرة سهوة لهم منكح من جربها وصبوح
فيا من رأى مثل الهراوة منكحاً
إذا بل أعطاف الجياد جروح

(الجدث محركة القبر والوكاف المطر المنهل والمزن السحاب الواحدة مزنة وسحابة ، دلوح كثيرة الماء ، والسهوة الفرس السهلة ، والصبوح بالفتح شرب الغداة) فالشاعر هنا جعل الرابطة بين الفتيان الفروسية والخمر والنساء ، وذلك ما اعتبره من الفتوة — طرفة فى معلقته قال الألوسى أن الريان هذا الذى رثاه الشاعر كانت له فرس لا تدرك تدعى (هراوة الأعزاب) لأنه تصدق بها على أعزاب قومه فكان العزب منهم يغزو عليها فإذا استفاد مالا وأهلا دفعها إلى آخر من قومه فكانوا يتداولونها فضربت مثلا ، وهذا ما يريده الشاعر بقوله أنها منكح لهم ، وذلك لأنهم يسبون النساء بفضلها كما كانت عادة العرب فى الغزو والغارات والسبى .

وروى فى بلوغ الأرب (١) عن الأغانى أن كلا بن أمية هاجر إلى المدينة فى خلافة عمر بن الخطاب (رض) فأقام بها مدة ثم لقى ذات يوم طلحة والزبير فسألهما أى الأعمال أفضل فى الإسلام ؟ فقالا الجهاد فسأل عمر (رض) فأغزاه فى جيش ، وكان أبوه قد كبر وضعف ، فلما طالت غيبته قال فى قصيدة يصف شوقه وحنين أم كلاب لابنها .

إذا سجعت حمامة بطن وج إلى بيضاتها دعواً كلابا
تركت أباك مرعشة يداه وأمك لا تسيغ لها شرابا

فبلغت عمر (رض) فلم يرد كلاباً فاهتز أمية وخلط جزعاً عليه ثم أتاه يوماً وهو فى مسجد الرسول (ص) وحوله المهاجرون والأنصار وأنشأ يقول :

أعاذل قد عذلت بغير علم وما تدرين عاذل ما الاقى
فما كنت عاذلة فردى كلاباً إذ توجه للعراق
ولم أقض اللبانة من كلاب غداة غد وآذن بالفراق
(فتى الفتيان) فى عسر ويسر شديد الركن فى يوم التلاق

فهو يرى الفتى ذلك البطل القوى والفارس الذى لا يهاب

(١) ج ٢ ص ١٣٩

(واللبانة الحاجة وآذنه بالأمر أعلمه به وقوله سجعت حمامة بطن وج سجعت الحمامة هدرت وصوتت ووج اسم وادى بالطائف وقوله لا تسيغ الشراب أى لا يسهل مدخل الماء إلى باطومها ولا تقدر أن تبتلعه لكربها وشجوها قال عبد الله بن يمرب بن معاوية :

فساغ لى الشراب وكنت قبلا أكاد أغص بالماء الفرات

وروى السيد المرتضى فى أماليه (١) لشاعر يبكى على قتلى بدر من المشركين) ولابد أن يكون جاهلياً :

فماذا بالقليب قليب بدر من (الفتيان) والشرب الكرام
وماذا بالقُليب قليب بدر من الشيزى يكال بالسنام

قال المرتضى : القليب هى البئر وأهل القليب جماعة قريش منهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة ، وقال فى النجد الشرب بالفتح جمع شارب . وفى الأمالى قال بشر بن أبى خازم لابنته عميرة :

فمن يك سائلا عن بيت بشر فإن له بجنب الرَّدم بابا
ثوى فى مَلحَد لابد منه كفى بالموت نأياً واغترابا
رهين بلى وكل (فتى) سيبلى فأذرى الدمع وانتحبى انتحابا

وظاهر أنه يريد كل رجل طيب كريم سينال البلى ، وروى المبرد فى الكامل (٢) قال رجل من الخوارج فى قتلى إحدى معارك المهلب والخوارج .

بسلى وسليرى مصارع (فتية) كرام وجرحى لم توسد خدودها

وقال آخر :

بسلى وسليرى مصارع (فتية) كرام وعقرى من كميت ومن ورد

(قال الأخفش سلى وسليرى بفتح السين فيهما موضعان بالأهواز) وقال المبرد ارتحل المهلب والخوارج بسلى وسليرى فنزل قريباً منهم فقيل منهم ، فقيل ما تنتظرون بعدوكم وقد هزمتموهم بالأمس وكسرتم حدهم ؟ الخ وأورد النويرى فى (نهاية الأرب فى فنون الأدب) (٣) الأبيات التالية للمهذلى .

ألا لله درك من فتى قوم إذا وهبوا

(١) ج ٢ ص ١٨
(٢) ج ٢ ص ١٩٤
(٣) ج ١ ص ٢٨٥ وقد جاءت أيضاً فى الأغانى ج ٢ ص ٦٤ وفى ديوان الهذليين أيضاً .

وقالوا من (فتى) للحرب يرقبنـــا ويرتقب ؟
فكنت (فتاهم) فيهـــا إذا تدعى لهـــا تثب

وفى الأغانى (١) أن أبا زبيد قال يمدح الوليد بن عقبة :

لعمر أبيك يا ابن أبى سُرَيّ لغيرك من أباح لها الديارا
أباح لهـــا أبارق ذات نور ترَنّحى القف منهـــا والعرارا
بحمد الله ثم (فتى قريش) أبى وهب غدت بُطناً غزارا
أباح لهـــا ولا يحمى عليها إذا ما كنتم ســـنة جزارا
يريد جزراً من الجدب والشدة
فتى طالت يداه إلى المعالى وطحطحتا القطمة القصـارا

(الأبرق هو البرقة إذا اتسعت وهى أرض غليظة فيهـا حجارة ورمل وطين مختلفة ، وتنبت أسنادها وظهورها البقل والشجر نباتاً كثيراً يكون إلى جنبها الروض أحياناً : والقف ما يبس من البقول وتناثر حبه وورقه ، فالإبل ترعاه وتسمن عليه والعرار نبت أصفر طيب الرائحة . وقيل هو بهار البحر واحدته عرارة : وغزاراً جمع غزيرة وهى من الإبـل الكثيرة اللبن : وطحطح الرجل ماله فرقه ، والقطمة الثياب القصارا وهى برود عليها الوشى) وقد قال فى الأغانى (٢) عن الوليد بن عقبة هـذا أنه أخو عثمان بن عفان (رض) لأمه وكان من (فتيان قريش) وشعرائهم وشجعانهم وأجوادهم ، وكان فاسقاً ولى لعثمان (رض) الكوفة بعد سعد بن أبى وقاص فشرب الخمر وشهد عليه لحده وعزله وفى الأغانى (٣) أن الحطيئة قال يمدح الوليد هـذا بعد أن وصله وكان جواداً :

أرى لابن أروى خاتين اصطفاهما قتال إذا يلقى العـــدو ونائله
(فتى) يملأ الشيزى ويروى بكفه ســـنان الرديني الأصم وعامله
يؤم العدو حيث كان بمحفل يصم السميع جرسه وصواهله
إذا حان منه منزل الليل أوقدت لأخراه فى أعلى اليفاع أوائله

(الشيزى خشب أسود تعمل منه القصاع أى أوانى الطعام ويطلق على ما صنع من ذلك ، والردينى الرمح نسبة إلى رديئة وهى امرأة رجل اسمه سمهر كان يبيع الرماح بالخط (موضع) فإذا غاب باعت رديئة مكانه وكانا يثقفان الرماح أى يقومانها ويسويانها فالردينية منسوبة إلى رديئة والسمهرية إلى سمهر ، والخطية إلى موضعهما ، وعامل الرمح هو صدره ، وقال فى النجد الخطى الرمح المنسوب إلى الخط وهو مرفأ للسفن بالبحرين حيث تباع الرماح : واليفاع كسحاب التل) .

وروى ابن فضل الله العمرى فى مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار عن الشابشتى (١) أن الحجاج غضب على هند بنت النعمان لكلام خشن وجهته إليـه ، فأمر بإخراجها من ديرها القريب من الكوفة فأخرجت ومعها ثلاث جوار من أهلها ، فقالت إحداهن :

خارجات يسقن من دار هند مهلنـــات بذلة وهوان
ليت شعرى ؟ أأول الحشر هذا أم محا الدهر غيرة (الفتيان)

فشد فتى من أهل الكوفة على فرسه فاستنقذهن من رسل الحجاج وتغيب فبلغ الحجاج شعرها وفعل الفتى فقال إن أتانا فهو آمن ، وإن ظفرنا به قتلناه فأتاه ، فقال له ما حملك على ما صنعت ؟ قال الغيرة فوصله وخلاه وفى كتاب الحماسة للبحترى (٢) قال عمرو بن مالك البجلى :

إذا شئت أن لا يبرح الود دائماً كأفضل ما كانت تكون أوائله
فآخ (فتى) حـــراً كريماً عروقه حساماً كنصل السيف حلواً شمائله
فذاك الذى يحمى لواشيك جده ويكفيك من لهو الكواعب باطله
ويحمل ما حملته من ملمة ويكفيك طلق الوجه ما أنت سائله

(البقية فى العدد القادم)

ضياء الدين الريس

(١) ج ٥ ص ١٣٨
(٢) ج ٥ ص ١٢٢ طبعة دار الكتب المصرية
(٣) ج ٥ ص ١٤٨

(١) ص ٣٢٥
(٢) ص ٥٧

اطلب كتاب
مبادىء فى القضاء الشرعى